

حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع اليهود

”الحوار العقدي“

الدكتور

محسن محمد عبد الناصر
أستاذ مساعد قسم التفسير والحديث

قال الله تعالى : « أَذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » .
اتبع الرسول صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى الله تعالى ، وفي نشر الدين الحنيف وفي الاقتناع والبيان والارشاد والتعامل مع القضايا الطارئة هذه التوجيهات الالهية ، لذلك دخل في حوار مستمر تعددت اطرافه وتنوعت أهدافه .

ومن الذين حاورهم الرسول صلى الله عليه وسلم اليهود . ومن القضايا التي أثرت في هذا الحوار ما يتصل بالعقيدة . فما المسائل التي سيطرت على الحوار العقدي الذي دار بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين اليهود ؟ وما الدوافع التي حركت المشاركين فيه ؟ وما الطرق التي اتبعت ؟ وما النتائج التي يمكن للبحث العلمي ان يستخلصها منه ؟ .

في هذه الدراسة محاولة للإجابة عن هذه الأسئلة .

والله ولي الوفيق .

نزل الدين الاسلامي على الرسول صلى الله عليه وسلم في بيئة غلب عليها الشرك . فجُلَّ أفرادها قد جعلوا لله شركاء في خلق الكائنات وتصريف الامور . فكان من الطبيعي أن يبدأ بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين أفراد هذه المجموعة حوار وجدل نزل الوحي المتلوي ببعضها وصدر البعض الآخر عن صاحب الرسالة وحيا مروريا .

وفي أول البعثة لم يشارك أهل الكتاب من يهود ونصارى في هذا الجدل لأسباب موضوعية : من أهمها خلو المجتمع المكي من أصحاب الديانتين عموما ، والتشابه الموجود بين الدعوة الاسلامية وما كان عليه اليهود والنصارى من توحيد الربوبية . ومع انتشار الاسلام وخاصة عند انتقاله الى المدينة نشأت ظروف الحوار بين الديانات الثلاث . وخاصة بين المسلمين واليهود .

وجاء في آيات كثيرة من القرآن الكريم حوار مع اليهود . اهتم بالجانب العقدي والتشريعي والأخلاقي وغيرها من الموضوعات . كما أوردت الأحاديث النبوية جانباً مهماً من هذا الحوار الذي يمكن للبحث العلمي أن يستقره للوقوف على نشأته وأسبابها ، وموضوعاته وأبعادها ، ودوافعه وأهدافها ، وطرقه ومصادرها .

نشأة الحوار مع اليهود وأسبابها

أدرك مشركو مكة وجود بعض الشبه بين دين اليهود وما يدعو اليه محمد صلى الله عليه وسلم من ترك عبادة الأوثان ومن قولٍ بأن الوحي يأتيه من السماء . فأرسلوا الى أحبار المدينة يسألونهم ، علمهم يجدون عندهم ما يتغلبون به على الدعوة الجديدة .

أخرج الترمذى^(١) بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قالت قريش لليهود : أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل : فقالوا سلوه عن الروح . قال فسألوه عن الروح فأنزل الله : ﴿وَسْأَلُونَا عَنْ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢) فالمشركون ، وقد كانت لهم صلات بيهود المدينة الذين لم يدعوهم إلى ترك الشرك وعبادة الله الواحد الأحد ، ولم يحذروهم مما هم عليه من وثنية ، استنجدوا باليهود ، وبذلك كان الحوار الأول بين الرسول صلى الله عليه وسلم واليهود . وهو حوار غير مباشر ، ذلك ان اليهود لم يلتقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يتلقوا منه جواباً عن أسئلتهم بل تركوا ذلك للمشركين .

ويعد الهجرة النبوية أصبحت المدينة المنورة تضم مجموعتين عقديتين : المسلمين واليهود الى جانب بعض المشركين .

أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينظم الحياة داخل المدينة المنورة تنظيمياً يأخذ بعين الاعتبار كثيراً من المعطيات . ولم يخف عليه ، صلى الله عليه وسلم ان مشاكل متعددة قد تنشأ بين سكان المدينة وقد تتسبب في توترات ، كما لم يخف عليه ان صراعا عقديا وجدلية موضوعية ودوافع بشرية ستحدث بين المجموعات المختلفة التي أصبحت تعيش في وسط جغرافي واحد ، وتتجاذبها دوافع فيها تجانس تارة وتنافر أخرى ، وحتى لا يتولد عن ذلك صراع فكري يثير الحقد فلا بد من توجيهات واضحة وقوانين محددة تمكن الافراد والجماعات من معرفة حقوقهم

(١) ت : ٤٨ تفسير القرآن ب ١٨ - انظر ايضا التحرير والتنوير ١٥ / ١٩٤

(٢) ١٧ الاسراء : ٨٥

وواجباتهم . ولذلك وضع الرسول صلى الله عليه وسلم معاهدة تنظيمية يمكن القول بأنها عقد سياسي واجتماعي تنظيمي .

لقد كثرت الجدل حول صحة هذه المعاهدة . وما يلاحظ أن أغلب الذين رفضوها انطلقوا من أدلة شكلية ، كعدم ورودها في كتب الفقه والحديث الصحيح ، وكروايتها بدون اسناد من طرف ابن اسحاق وابن سيد الناس .^(١)

ولا يسمح المقام بإيراد أدلة الرافضين لهذه الوثيقة للرد عليها والتنبيه على تهافتها . فليس ذلك موضوع هذا البحث وقد تكفل بهذا العمل بعض الباحثين^(٢) ويكفي هنا أن نشير الى أن هذه المعاهدة تستجيب لظروف عقدية واجتماعية وسياسية واقتصادية ، كانت عليها المدينة المنورة لما هاجر اليها الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد وجدت هذه الظروف رسولا كريما لا ينطلق عن هوى ولا يريد للانسانية إلا الخير والطمأنينة والعدل والحياة المنظمة ، ولذلك دخل في حوار مع المجموعات التي يتكون منها المجتمع المدني توج بعقد معاهدة صداقة تفسح المجال للتعايش السلمي بين الديانتين ، وتطبع الواقع الجديد بطابعها المتسامح المبني على قاعدة متينة من مواطن اللقاء الكثيرة المشتركة .^(٣)

وتتبع ما ورد في هذه الوثيقة يبين أنها ليست عملا فرديا ولا أوامر تسلطية ، فجانبا التشاور والتحاور بارز في شكلها ومضمونها . فهي تهتم بالمهاجرين من قريش ومن اتصل بهم من العرب وغيرهم . . وهي تصنف الانصار وتميز بين بطونهم وأفخاذهم ، وكذلك تفعل بالنسبة لليهود . ولا يتوقف أمر المعاهدة على حقوق وواجبات الأفراد والمجموعات الذين يقيمون في المدينة بل يتجاوزه ليعين حرمة المكان الذي تقيم فيه هذه المجموعات والعلاقات الخارجية التي يتقيد بها سكان المدينة عند تعاملهم مع الأجانب عنها وخاصة قريش .

وعلى كل فالذي يُستنتج من هذه المعاهدة أنها عقدت بعد حوار وتشاور قاده الرسول صلى الله عليه وسلم ، وشاركت فيه الأطراف التي ذكرت فيها . لقد طبقت البنود الخاصة بالمهاجرين والأنصار تطبيقا سليما لم يزد المجموعتين الا ايمانا ووحدة

(١) فان فلوتن : الدولة العربية وسقوطها . ترجمة يوسف العش . انظر الحاشية ص ٢٠

(٢) انظر مثلا : محمد حميد الله : الوثائق السياسية ص ٥٧ وما بعدها . د . ضياء الدين العمري :

المجتمع النبوي في عهد النبوة ص ١٠٩

(٣) محمد حسين فضل الله : الحوار في القرآن ص ١١٨

وقوة . أما التي تعود الى اليهود فلم يكن لها أن تؤتي أكلها ذلك ان اليهود وأجبارهم ناصبوا الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين العداوة وأدركوا الخطأ الذي وقعوا فيه لما لم يقاوموا الاسلام منذ الهجرة .

لقد كانوا يَمَنُّون انفسهم بكثرة اليد العاملة عند قدوم المسلمين المهاجرين ، وكانوا يتوقعون أن تصبح المجموعة الجديدة التي حلت بالمدينة عنصرا من عناصر التوتر الذي يعتمد عليه يهود المدينة للسيطرة على الثروة ولتصريف انتاجهم ولتحقيق السيولة المالية ، ولكن لما لاحظوا الوحدة التي تجمع بين المسلمين ، ولما أدركوا ان الاسلام يدعو الى العمل والبذل والابتكار والمساهمة في استثمار نعم الله الظاهرة والباطنة بطريقة تختلف اختلافا جذريا عن طريقة اليهود الأنانية ، شرعوا في الدس والتشكيك واثارة الأحقاد . فقد ذكر ابن اسحاق أن شاس بن قيس وكان شيخا قد عسا (اسن) عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم ، قد مر على نفر من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه . فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الاسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال : قد اجتمع ملائني قيلة بهذه البلاد . لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملوئهم بها من قرار . فأمر فتى شابا من يهود كان معهم فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم ثم اذكر يوم بعثت وما كان قبله وانشدكم بعض ما كانوا يقولوا فيه من الأشعار^(١) .

لقد كان شاس بن قيس يمني النفس بأن يجد في الوافدين الجدد على المدينة عنصرا من عناصر القوة بالنسبة إليه . لم ينظر اليهم على أنهم يشتركون معه في توحيد الله ونبذ الأوثان والتوجه بالشكر والثناء والعبادة إلى الواحد الأحد ، الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد . لم ينظر اليهم بهذا المنظار ، ذلك ان نشر التوحيد لا يهمه وعبادة الأوثان لا تقلقه . المهم بالنسبة إليه ان يجد من يعمل بضمن زهيد في حقوقه ومن يقترض بفائض مححف أمواله ومن ينصره بدون قيد أو شرط في خصوماته .

ولما أدرك هذا الشيخ أن عهدا جديدا قد بدأ في المدينة المنورة وان الاسلام قد وحد قلوب معتنقيه وأغلق الباب امام تلاعب اليهود وأفسد عليهم سياستهم لجأ الى طريقة فيها دس واثارة .

ان هذه الطريقة لم تكن غريبة على اليهود وأجبارهم . فالأخيريون قد سلكوا طريق التعنت

(١) ابن هشام : السيرة ٥٥٥/١

والباس الحق بالباطل . فكانوا يتظاهرون بمحاورة الرسول صلى الله عليه وسلم وسؤاله لاثارة بعض القضايا التي تولد في بعض النفوس قلقاً ذهنياً وشكاً سلبياً وقد تشغل المسلمين عن عملهم اليومي الذي يسعون من وراءه الى ان يكونوا خير أمة أخرجت للناس .

وهكذا يستطيع الباحث ان يدرك نوعية هذه الأسئلة التي كانت تصدر عن اليهود الذين تأكدوا من أنهم ارتكبوا بمهادنة الاسلام مهادة مكنته من ان يصبح قوة تهدد وجودهم بالمدينة ويصعب عليهم محاربتة بطريقة مكشوفة . قال ابن اسحاق : وكان أحبار يهود الذين يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتعتونه ويأتونه باللبس ليلبسوا الحق بالباطل . فكان القرآن ينزل فيهم وفيما يسألون عنه إلا قليلاً من مسائل الحرام والحلال كان المسلمون يسألون عنها .^(١)

أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم أن اليهود يريدون بعث الضغائن ونشر الحقد والجدل العقيم بين المسلمين ، كما أدرك أنهم يستخدمون لبلوغ مآربهم رصيدهم المعرفي المتمثل في التوراة التي ما أتى الاسلام ليشكك فيها ، وانما ليخلص أحكامها من الزيف والتحريف . ولذلك أمر الصحابة بأن يقفوا موقفاً حذراً مما ينقله اليهم اليهود ، وأن يمسكوا عن التصديق والتكذيب ، فقد عقد البخاري باباً في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة عنون له : باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء » . وخرج فيه حديث أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرية ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقلوا آمنا بالله وما انزل إلينا وما انزل اليكم (الآية)^(٢) واستنتج بعض العلماء من هذا الحديث ومن أحاديث أخرى ، تنفق معه في النهي عن الأخذ من اليهود^(٣) ، ومن بعض الآيات القرآنية المطابقة له في المعنى^(٤)

(١) ابن هشام : سيرة ٣٥٨/١

(٢) خ . ٩٦ . الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لا تسألوا أهل الكتاب شيء .

انظر أيضاً ٦٥ تفسير سورة البقرة باب قولوا آمنا بالله وما انزل إلينا .

(٣) اخرج الامام احمد بسنده عن جابر بن عبد الله ان عمر بن الخطاب اتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب

اصابه من بعض اهل الكتاب فقرأه عليه فغضب فقال : امتهوكون فيها يا ابن الخطاب (الحديث)

المسند ٣٨٧/٣ .

اخرج البخاري بسنده عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما انه قال : يا معشر المسلمين كيف تسألون

اهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم احدث الأخبار (الحديث) ٥٢

الشهادات ب ٢٩ : لا يسأل اهل الشرك عن الشهادة وغيرها .

(٤) من هذه الآيات قول الله : ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن (الآية) ٢٩ العنكبوت ٤٦

أن الحوار مع اليهود والأخذ عنهم غير مسموح به في الشريعة الإسلامية في القضايا التي لم يتعرض لها القرآن الكريم والسنة النبوية ، فقد يكون ما يخبرون به المسلمين صدقا فيأثم هؤلاء إن هم كذبوهم ، أو يكون كذبا فيرتكبون ذنبا إن هم صدقوهم وآمنوا بما أخبروهم به . ولكن تدبر ما جاء في القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية في هذه القضية يؤدي الى بعض الاستنتاجات منها :

١ - ان النهي عن محاوره اليهود والأخذ عنهم مقيد ، فلا يكون الا في القضايا التي سكت عنها القرآن الكريم والسنة النبوية . فما جاء عنهم مساير للقرآن والسنة يمكن للمرء ان يتناوله معهم بالبحث . وكذلك ما خالفوا فيه أحد الاصلين فالواجب يدعو إلى محاورتهم لرد ما أولوه تأويلا فاسدا أو انتحلوه أو كتموه . فقد ذكر ابن حجر أن الامام الشافعي قد نبه الى انه لم يرد النهي عن تكذيبهم فيما ورد شرعا بخلافه ، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعا بوفاقه^(١) .

٢ - تحتاج موافقة اليهود أو تكذيبهم الى أدلة نقلية وعقلية وهذه الاخيرة لا تقام أحيانا الا بواسطة الحوار . فالدين الإسلامي يمتاز بشمولية جعلت المعرفة فيه لا تقتصر على أدلته واحكامه وبراهينه وانما تتجاوز ذلك لتشمل التجربة الانسانية والشرائع المنزلة .

فالقرآن الكريم قد أشار في بعض الاحيان الى ضرورة الرجوع الى الأمم السابقة وسؤالها عن بعض القضايا .

قال تعالى « وأسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ، أجعلنا من دون الرحمن الهة يعبدون »^(٢) فالمقصود حسب بعض المفسرين أن يسأل أمهم وعلما دينهم وهو كقوله تعالى : « وأسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك » .

قال الفراء مبينا وجه المجاز في الآية : هم انما يخبرونه عن كتب الرسل . فاذا سألم فكأنه سأل الانبياء عليهم السلام^(٣)

ورأى بعضهم أن في الآية تمثيلا لشهرة الخبر وتحقيقه فسؤال الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الذين قبله متعذر على الحقيقة ، والمعنى استقرئ شرائع الرسل وكتبهم واخبارهم هل تجد فيها عبادة آلهة^(٤)

(١) ابن حجر : فتح الباري ١٣٨/٨

(٢) الزخرف : ٤٥

(٣) انظر : د . محمد السيد حسين الذهبي : الاسرائيليات في التفسير والحديث ص ٦٠

(٤) انظر : التحرير والتنوير ٢٢٢/٢٥

وسواء أخذنا بالتفسير الأول أو الثاني فما ينتج عن العمل بالآية واحد . فلا يستقرأ يتطلب البحث عن النصوص والاخبار والدخول في حوار مع المكلفين بتطبيقها والسهر عليها . وفي هذا السياق تندرج الاخبار التي تفيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد استمع لبعض اليهود وهم يتلون التوراة . فقد روى الامام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود قال (« ان الله عز وجل ابثع نبيه لادخال رجل الجنة . فدخل الكنيسة ، فاذا اليهودى يقرأ عليهم التوراة ، فلما اتوا على صفة النبي صلى الله عليه وسلم أمسكوا . وفي ناحيتها رجل مريض فقال النبي صلى الله عليه وسلم مالكم أمسكتم ؟ فقال المريض : إنهم أتوا على صفة نبي فأمسكوا . ثم جاء المريض يحبو حتى أخذ التوراة فقرأ حتى أتى على صفة النبي صلى الله عليه وسلم وأمته فقال : هذه صفتك وصفة أمتك أشهد ان لا اله الا الله وأنتك رسول الله . (١)

(٣) يبين هذا الحديث ان المدينة في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وقبل اخلاء اليهود عنها كان بها دور للعبادة والعلم خاصة باليهود . فقد جاءت لفظة كنيسة في هذا الحديث كما وردت عبارة بيت المدارس في احاديث أخرى (٢) . وتفيد هذه العبارة أن اليهود كانوا يتوجهون إلى مكان خاص عند دراسة التوراة .

(٤) إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يدخل احيانا هذه الدور ويطلع على ما يدور فيها ويسأل ما استدعى الأمر ذلك .

(٥) كانت هذه الزيارات والاسئلة رافدا من الروافد التي اطلع بواسطتها الرسول صلى الله عليه وسلم على أخبار اليهود وأدرك طرق تعاملهم مع النصوص وتبين له أن أخبارهم التي لا تناقض مانزل عليه ولا تعارض الكليات التي قامت عليها احكام الاسلام وتوجيهاته ، يمكن للمسلم أن يسمعها منهم وأن يناقشهم فيها لمزيد من الفهم أو التثبت . وفي هذا السياق يندرج الحديث النبوي المروي عن عبد الله ابن عمرو والذي جاء فيه « بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » . (٣)

(٦) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدرك مكانة الحوار في التأثير على النفوس وفي هداية أصحابها إلى نبذ تقليد الضالين والمضلين . لقد علمه ربه عن طريق الوحي الجلي أن بعض

(١) حم : مسند ٤١٦/١

(٢) خ ٨٩ الاكراه . الباب الثاني في بيع المكره ونحوه في الحق وغيره .

(٣) خ : ٦٠ احاديث الأنبياء : باب ٤٣ ما ذكر عن بني اسرائيل ح ٩

الكافرين يتركون ملة آبائهم عندما يتبين لهم عن طريق الحوار صدق النبي المرسل إليهم ، وجرب هو هذه الطريقة مع كفار مكة ومع يهود المدينة فأنثرت خيرا مع البعض من هؤلاء وأولئك ، ولذلك استمر على تطبيقها وحث عليها أصحابه بعد أن بين لهم الحدود التي يجب الوقوف عندها . فإذا ما حُفَّت بالحوار الشبهات ، وإذا ما تناول قضايا سكت عنها القرآن الكريم والسنة النبوية وهي مشتركة بين امكانية الصدق والكذب فحرى بالمسلم ان يوقف الحوار وأن يقول « آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون »^(١) .

وهكذا يتضح أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حاور اليهود كما حاور غيرهم واستمع اليهم وسمح لهم بأن ينشروا ما عندهم من معرفة بل أذن لصحابته بأن ينلقوا أحاديثهم التي تطابق أصل ديانتهم ، ولا تعارض ما جاء به الاسلام . وهكذا احتوت كتب الصحاح والسنن حوارا متنوعا طرفاه الرسول صلى الله عليه وسلم وبعض المسلمين من جهة وأخبار اليهود أو عامتهم من جهة أخرى .

والمتتبع لهذا الحوار يلاحظ انه يمكن تقسيمه الى الأنواع الآتية :

أ - الحوار العقدي : ويبرز في القضايا المتعلقة بالعقيدة والتي اثارها اليهود ليزرعوا الشك في النفوس .

ب - الحوار التشريعي : وتظهر فيه القضايا التي كانت أصلا لحكم تشريعي أو الاحداث التي أظهرت التطابق بين احكام التوراة قبل تحريفها وبين التي جاء بها الاسلام .

ج - الحوار الاجتماعي : وهو الذي يهتم ببعض العلاقات الاجتماعية التي كانت قائمة بين المسلمين واليهود .

د - الحوار المصيري : وهو الذي تحدد اثناءه مصير اليهود بالمدينة المنورة خاصة والجزيرة العربية عامة .

وتناول دراستنا هذه النوع الأول راجين من الله تعالى أن ييسر لنا تناول الأنواع الأخرى في فرص قادمة .

الحوار العقدي

لقد مر بنا ان اليهود ادركوا انهم ارتكبوا خطأ بمهادنتهم الرسول صلى الله عليه وسلم عند انتقاله الى المدينة وأن البعض من أعيانهم وأجبارهم نصب له العداوة بغيا وحسدا وضغنا . وانهم سعوا الى الدس والفتنة والجدل عن طريق اثاره القضايا التي توجد في المجتمع قلقا نفسيا وشكا خانقا وصراعا بين المجموعات . وفي هذا السياق تندرج أسئلتهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن الروح وقد ذكر أنفا انهم شرعوا في توجيهها الى الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق مشركي مكة وواصلوا ذلك بعد الهجرة ..

أخرج البخارى في كتاب العلم عن شيخه قيس بن حفص قال : حدثنا عبد الواحد حدثنا الأعمش سليمان عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : بينا أنا أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم في خرب المدينة وهو يتوكأ على عسيب معه . فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح . وقال بعضهم لا تسألوه ، لا يجيء بشيء تكرهونه . فقال بعضهم : لنسألنه . فقام رجل منهم فقال : « يا أبا القاسم : ما الروح ؟ فسكت : فقلت انه يوحى اليه . فقمت . فلما انجل عنه فقال : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما اوتوا من العلم الا قليلا . قال الأعمش هكذا قراءتنا (١) .

تخريج الحديث

أورد البخارى هذا الحديث ايضا في التفسير والاعتصام بالكتاب والسنة والتوحيد فذكره ضمن ابواب الأول عند تفسير سورة بني اسرائيل (الاسراء) وعنون له بباب ويسألونك عن الروح . وفي الكتاب الثاني بباب ما يكره من كثرة السؤال . واما في الكتاب الثالث فقد خرجته في بابين متتاليين عنون لاولهما بقوله تعالى : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين » ولثانيهما بقوله عز وجل : انما قولنا لشيء اذا اردناه ، وخرج الامام مسلم الحديث في كتاب المناقبين ضمن باب سؤال اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح وقوله تعالى : ويسألونك عن الروح وأورده هناك بثلاث روايات واحدة منها مزدوجة السند . وخرج الحديث ايضا الامامان أحمد بن حنبل والترمذي فقد كرره الأول في ثلاثة مواضع من مسند عبد الله بن مسعود وذكره الثاني في كتاب التفسير في الباب الثامن عشر الذي اورد فيه احاديث لتفسير بعض آيات سورة بني اسرائيل وعلق عليه بقوله هذا حديث حسن صحيح وذكر قبله حديث ابن عباس الذي ورد فيه ان قريشا طلبت

(١) خ ٢ . العلم ب ٤٧ قول الله تعالى وما اوتيتم من العلم الا قليلا

من اليهود ان يعطوهم شيئاً يسألون عنه الرسول صلى الله عليه وسلم^(١) .

خصائص الاسناد

تنتهي كل الأسانيد التي اوردت هذا الحديث الى عبد الله بن مسعود الذي رفعه الى الرسول صلى الله عليه وسلم والمتبع لسلاسل الاسناد يلاحظ :

١ - اشترك المخرجون في أن راوى الحديث عن ابن مسعود هو علقمة ولم يُضف اليه مسروق الا في روايتين : احدهما للامام احمد والثانية للامام مسلم . واشتركت الروايات في أن الذي اخذه عن علقمة هو ابراهيم النخعي^(٢) وعنه اخذه الاعمش الذي رواه لكل من عبد الواحد وحفص بن غياث ووکیع وعيسى بن يونس .

وعن هؤلاء رواه كل من قيس بن حفص وعمر بن حفص ومحمد بن عبيد ويحيى بن جعفر وموسى بن اسماعيل الذين حدثوا به الامام البخارى . والمتبع لسلاسل البخارى وطرقه يلاحظ :

أ - تضم احدى سلاسل اسناد هذا الحديث ستة رجال :^(٣) ثلاثة منهم كوفيون وبصريان الى جانب الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود وفي هذه السلسلة ثلاثة من التابعين المتقنين يروى بعضهم عن بعض^(٤) . وهم علقمة بن قيس النخعي^(٥) وابراهيم بن يزيد النخعي^(٦) وسليمان بن مهران الاعمش الكوفي^(٧) .

(١) تقدم في هذا البحث ص ٤

(٢) العيني : عمدة القارىء ١٩٩/٢

(٣) هي السلسلة المتكونة من شيخ البخارى فيس بن حفص وعبد الواحد بن زياد وسليمان بن مهران الاعمش وابراهيم بن يزيد النخعي وعلقمة بن قيس النخعي وعبد الله بن مسعود رضى الله عنه ج

(٤) العيني : عمدة القارىء ١٩٩/٢

(٥) علقمة بن قيس النخعي ولد في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم روى عن عمر وعثمان وعلى وسعد وحذيفة . من بين الذين رووا عنه ابن اخته ابراهيم بن يزيد النخعي مات بين سنتي ٦١ و ٧٣ هـ .
تهـ . تهـ ٢٧٦/٨ وما بعدها . تر . ٤٨٤

(٦) ابراهيم بن يزيد النخعي ابو عمران الكوفي الفقيه روى عن خاليه الاسود وعبد الرحمن ابني يزيد ومسروق وعلقمة ومن الذين رووا عنه الاعمش رأى عائشة رضى الله عنها . كان مفتي أهل الكوفة .
مات في عهد الحجاج بن يوسف (تهـ . تهـ ١٧٧/١ تر ٣٢٥)

(٧) سليمان بن مهران . ابو محمد الكوفي الاعمش . روى عن أنس ولم يثبت له منه سماع . مات ١٤٧ - ١٤٨ هـ . تهـ ٢٢٢/١٤ تر ٣٧٦)

ب - تربط صلة الرحم بين راويين من رواة هذا الحديث وهما علقمة بن قيس النخعي و ابراهيم بن يزيد النخعي فالثاني ابن اخت للأول .

ج - أخذ البخارى الحديث عن شيخين يشتركان في اسم الاب ويختلفان في المصر فاسم والد كل منهما هو حفص . ولكن احدهما وهو عمر بن حفص كوفي^(١) وثانيهما وهو قيس بن حفص بصرى^(٢) وكانا شيخين للبخارى .

د - تشتمل احدى سلاسل الاسناد رواية الابناء على الآباء فعمر بن حفص بن غياث قد روى الحديث عن ابيه .

هـ - اشترك البخارى ومسلم اشتراكا تاما في احدى سلاسل هذا الحديث فقد صدر الامام مسلم ذكره لطرقه بالسلسلة التي قال فيها عمر بن حفص ثنا ابي ثنا الاعمش ثنا ابراهيم عن علقمة عن عبد الله وهذه هي سلسلة اسناد الحديث عند البخارى في كتاب التفسير .

ولم يقتصر الاشتراك على اسماء الرواه بل شمل ايضا طرق الرواية التي جاءت بصيغة حدثنا في ثلاثة مواضع وحدثني في موضع واحد والعننة في موضعين .

ومما يلاحظ ان سلسلة اسناد البخارى في كتاب العلم قد وردت بحدثنا في ثلاثة مواضع وبالعننة في ثلاثة أخرى ، وجاء اسناده في الاعتصام بحدثنا في موضعين وبالعننة في اربعة .

وجاءت احدى روايتي كتاب التوحيد بالعننة دون سواها^(٣) .

٢ - يبلغ مجموع عدد الرجال الذين تكونت منهم سلاسل البخارى التي خرجت الحديث ثلاثة عشر رجلا منهم صحابي واحد وثلاثة تابعين واربعة من شيوخ شيوخ البخاري وخمسة من شيوخه . اما رجال مسلم فعددهم اربعة عشر رجلا اشترك مع البخارى في ستة منهم .

٣ - جاءت إحدى سلاسل الامام مسلم مطابقة لسلسلة من سلاسل الامام احمد . . وهي التي يستنتج منها ان مسروقا قد اشترك مع علقمة في اخذ الحديث عن عبد الله بن مسعود^(٤) وتتبع الدارقطني هذه السلسلة مبينا ان اصحاب الاعمش كعبد الله بن زياد

(١) عمر بن حفص بن غياث روى عن ابيه روى عنه البخارى ومسلم . مات ٢٢٢ هـ . (ته . ته . ٤٣٥ / ٧)
تر (٧١٣)

(٢) فيس بن حفص بن القعقاع التميمي روى عن عبد الواحد بن زياد وروى عنه البخارى اثني عشر حديثا . مات ٢٢٧ هـ . (ته . ته . ٣٩٠ / ٨) تر (٦٩٢)

(٣) خ ٩٧ توحيد ٢٩ باب قول الله تعالى انما قولنا لشيء ح ٤

(٤) م - ٥٠ - صفات المنافقين واحكامهم (٢٧٩٤) حم - ١ / ٤١٠ .

وعيسى بن يونس وحفص بن غياث ووكيع رووا الحديث عن الاعمش عن ابراهيم عن
علقمة عن عبد الله ، وكان يرمي من وراء ذلك الى التأكيد على ان رواية الحديث عن
مسروق تعد شذوذاً ذلك ان روايات اصحاب الاعمش المذكورين هي الصواب^(١) .

وما ذهب اليه الدارقطني يحتاج الى توقف ذلك أن من العلماء من ذهب الى القول بأن الامام
مسلماً اورد رواية مسروق متابعة لبيّن علة اسنادها^(٢) . ومنهم من ارجع ذلك الى الصناعة
الحديثة التي امتاز بها الامام مسلم والتي وصفها القاضي عياض فقال : ان مسلماً ذكر في صحيحه
احاديث الحفاظ المتقدمين اولاً وجعلها اصولاً ، ثم أتبعها باحاديث المستورين المتوسطين في
الحفظ والاتقان على سبيل المتابعة والاستشهاد فمراد الامام مسلم من ذكر احاديث هذه الطبقة
ذكر علل الأحاديث ، وقد حقق ذلك ضمن ما أتى به في صحيحه من جمع الطرق والاسانيد
والاختلاف^(٣) . وقد يستطيع الباحث ان يستنتج من صنيع مسلم بالنسبة لسلاسل اسناد
الحديث الذي نحن بصده انه اراد ان يقدم لنا نوعين من أنواع سلاسل اسناد الحديث الصحيح
فالنوع الأول تنقل سلاسل الحديث الصحيح لذاته وهي التي لا يتطرق اليها الشك في ضبط
وعدالة رواتها واتقانهم وما شابهها من شروط الصحة التي اشترطوها والتي لا يناسب المقام
تحليلها . أما الثاني فتتفق سلاسله مع سلاسل النوع الأول في الشروط الاساسية ولكن قد تحف
بها النقائص في بعض الجزئيات وهي هنا الشهرة ذلك ان رجال طريق مسروق لم يُتهم منهم أى
واحد غاية ما في الأمر ان اصحاب الاعمش كما قال الدارقطني رووا الحديث عن ابراهيم عن
علقمة عن عبد الله . فالرواية عن مسروق صحيحة لغيرها لانها لم تشتهر اشتهاً الرواية عن
علقمة .

ألفاظ الحديث

- ان جمع الفاظ الحديث برواياته التي وقعت الاشارة اليهما يمكن من استخراج المعاني الآتية :
- (١) مصاحبة عبد الله بن مسعود الرسول صلى الله عليه وسلم ووجوده الى جانبه طيلة الحوار
الذى دار بينه عليه الصلاة والسلام وبين اليهود .
- (٢) مرور الرسول صلى الله عليه وسلم بجماعة من اليهود عبر عنها بالنفرتارة وبالقوم اخرى .

(١) الدارقطني : الالتزامات والتتبع ٢٣٦

(٢) م . س تعليق المحقق ٢٣٧

(٣) انظر : صيانة صحيح مسلم . ابن الصلاح ٩٠ - ٩١

وجاء في رواية ان نفرا من اليهود قد قاموا الى الرسول صلى الله عليه وسلم .
 (٣) التأكيد على ان نقاشا قد دار بين اليهود قبل محاورتهم الرسول صلى الله عليه وسلم .
 فبعضهم كان يرى سؤال الرسول صلى الله عليه وسلم عن الروح في حين ذهب شق آخر
 الى خلاف ذلك خوفا من ان يصدر عنه صلى الله عليه وسلم مالا يستجيب لرغائبهم او ما
 يفضحهم ويجعلهم يندمون على ما قدموا عليه .
 وعبر عن هذا الموقف المتخوف بصيغ متعددة منها :- لا تسألوه لا يجيء فيه شيء
 تكرهونه^(١) .

- لا تسألوه لا يسمعكم ما تكرهونه في رواية^(٢) وانه يسمعكم ما تكرهون في اخرى^(٣)
 - لا يستقبلكم شيء تكرهونه^(٤)

- ما رايكم اليه^(٥) وقال النووي ما رايكم اليه اي ما دعاكم الى سؤاله او ما شككم فيه حتى
 احتجتم الى سؤاله او ما دعاكم الى سؤال تخشون سوء عقباه^(٦) وقرأها بعضهم بصيغة
 الفعل الماضي على انها من الريب . وذهب البعض الآخر الى ان اليهود قالوا ما رايكم
 بصيغة المصدر وتفيد الاصلاح . واستبعد هذا القول ابن حجر^(٧) ورأى الخطابي ان
 الصواب هو ما رايكم اي ما حاجتكم . واستحسن ابن حجر هذه الصورة . وقال انه
 رأى ما يدعمها في رواية للمسعودي عن الاعمش عند الطبري^(٨) . وأخيرا قال الكرمانى
 هي ما رايكم اي ما فكركم^(٩) .

٤ - ذكرت كل الروايات ان الداعين من اليهود الى سؤاله عليه الصلاة والسلام كانت لهم الغلبة
 ولكنها تفاوتت في التعبير عن مصدر السؤال وصيغته . فذكرت روايات ان واحدا فقط هو
 الذى سأل الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقام رجل منهم . في حين جاء في أخرى أن
 الجميع أو بعضه هم مصدر السؤال . فقالوا يا ابا القاسم فسألوه فقام اليه
 بعضهم اما صيغة السؤال فجاءت انشائية في روايات كقول السائل : يا ابا القاسم ما
 الروح ، وحدثنا عن الروح ، واخبارية في روايات أخرى فقد روى ان عبد الله
 بن مسعود قد نقل سؤاله اليهود فقال : فسألوه عن الروح في رواية و« فسألوه عن الروح
 في ثانية » .

(١) خ ٢ علم / ٤٧ (٥ + ٤) خ ٦٥ تفسير سورة بني اسرائيل ١٢

(٢) (٦) النووي ١٧ / ١٣٧

(٣) (٨ ، ٧) ابن حجر ٨ / ٣٢٤

(١) خ ٢ علم / ٤٧

(٢) خ ٩٦ - اعتصام ٣ ح ٩ .

(٣) ت تفسير سورة بني اسرائيل ١٨ ح ٣١٤١

(٩) الكرمانى نقلا عن عمدة القاري ١٩ / ٣٤

٥ - أجمعت الروايات على ان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يجب اليهود على الفور ، إذمرت فترة زمنية بين صدور السؤال والجواب وتفاوتت الفاظ الروايات في التعبير عما فعله وشعر به عبد الله بن مسعود طيلة هذه الفترة .

جاء في رواية انه عرف ان الرسول صلى الله عليه وسلم يوحى إليه فتأخر عنه في رواية^(١) وقام مقامه في ثانية^(٢) واستمر على ذلك حتى صعد الوحي في ثالثة^(٣) . والى جانب الروايات التي جاء فيها أن عبد الله بن مسعود كان على ادراك وعلم بنزول الوحي في فترة الصمت هذه ، وردت روايات أخرى جاء فيها ان الصحابي الجليل ظن أنه يوحى إليه^(٤) وهناك نوع ثالث من الروايات جاء فيها ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد سكت ولم تشر الى الوحي^(٥) .

٦ - أجمعت الروايات على ان الرسول صلى الله عليه وسلم أجاب عن سؤال اليهود بأية قرآنية إذ تلا على مسامعهم قوله تعالى : ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا . وجاء في رواية كتاب العلم للبخارى « وما أوتوا » مكان « وما أوتيتم » وجاء الحديث بلفظ « وما أوتوا » ايضا في رواية لمسلم .^(٦)

وتتبع العلماء قوله الاعمش هذه فتبين لهم ان هذه القراءة ليست في السبعة بل ولا في المشهور من غيرها وقد اغفلها ابو عبيد في كتاب القرأت له من قراءة الأعمش^(٧) ولذلك ذهب بعضهم الى ضرورة اصلاح « أوتوا » باوتيتم في حين تمسك البعض الآخر بتركها على حالها مع التنبيه الى ذلك فلعلها قراءة شاذة

واستدل القاضي عياض على فساد المذهب الاخير بأن القراءة الشاذة لا يحتج بها في شيء فقد نفى الامام الشافعي وجمهور العلماء الاحتجاج بمصحف ابن مسعود^(٨) . وهكذا يتضح ان الاختلاف في الفاظ الحديث لم يكن اساسيا الا في مسألتين :

(١) انظر : خ = تفسير سورة بني اسرائيل ١٢ ح ١ - ٩٦ اعتصام ٣ ح ٩

(٢) خ تفسير سورة بني اسرائيل ١٢ ح ١

(٣) انظر خ = علم ٤٧ - ت : تفسير سورة بني اسرائيل ب ٣١٤١/١٨

(٤) خ ٩٧ توحيد ٢٨ (فظنت انه يوحى اليه)

(٥) حم ١/ ٤١٠ (فسأله عن الروح فسكت ثم تلا هذه الآية)

(٦) مسلم : ٥٠ صفات المنافقين واحكامهم (٤ و ٢٧)

(٧) ابن حجر : ف ١/ ١٨١

(٨) انظر : العيني ١٩٩/٢ وما بعدها .

- أ - المكان الذى التقى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم باليهود هل هو حرث المدينة ام خرب المدينة وترجح اغلب الروايات اللفظ الأول .
- ب - الضمير الذى لحق فعل أتى المبني للمجهول ، هل هو ضمير الخطاب ام ضمير الغائب ورجح العلماء الأول لانه هو المتواتر .

المباحث

قدم الحديث بطرقه المتعددة مادة تسمح للباحث بأن يدرس الجانب النفسي والسلوكي ليهود المدينة وهم يحاورون الرسول صلى الله عليه وسلم : فالجدل الذى دار بين اليهود قبل توجههم بالسؤال عن الروح للرسول صلى الله عليه وسلم يظهر الحيرة التى كان عليها اليهود والخوف الذى انتابهم والجانب التسلطي الكامن في نفوسهم . فهذا البعض من اليهود الذى قال لما مرّ الرسول صلى الله عليه وسلم بهم سلوه عن الروح يعبر عن النزعة العدائية التى تمكنت من نفوس أغلبهم ، لقد شاهدوا الرسول صلى الله عليه وسلم يتنقل بينهم ويحيى حياتهم ويتفاعل مع أصحابه الذين هاجروا معه ونصروه وعزّزوه فتكوّنت منهم أمة وصفها الله تعالى بأنها خير أمة أخرجت للناس وقال فيها « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم »^(١) لم تقبل نفوس اليهود هذه السلم الاجتماعية وتلكم الطمأنينة النفسية التى عمت المسلمين وجعلتهم يؤمنون بما يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم ولا ينتابهم الشك والوسواس ، ولا تعترى انفسهم دوافع الضعف والوهن ولا تعرف مجموعة من الأمراض الفتاكة مثل الحسد وشح الأنفس إليهم سبيلا . لقد كان كثير من اليهود يتألم باطنيا من هذه الرابطة التى انشأها الرسول صلى الله عليه وسلم بين أصحابه فجعلهم يتحدثون فى السراء والضراء . ويؤمنون أن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم ، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم . لقد أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوتهم الحسنة والمرجع الذى يعودون اليه كلّما وجدوا انفسهم امام قضية من القضايا التى يعسر حلها او اذا ما نشأت بينهم بعض المشاكل اليومية التى لا يخلو منها مجتمع انساني . لقد توجه الله تعالى الى عبادة المؤمنين بالخطاب لفض ما يطرأ بينهم فقال : فإن تنازعتم فى شئ فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا^(٢) .

أراد بعض اليهود أن يحل العقد الذى يربط بين الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الابرار وذلك بان يظهر للصحابة ان ما عند محمد صلى الله عليه وسلم من علم قد يتطرق إليه

الشك ، وقد يخالف ما نزل على غيره من الرسول . ولما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم صحبة أحد الصحابة الأبرار هو عبد الله بن مسعود ، سولت له نفسه ان يوجه سؤالاً للرسول صلى الله عليه وسلم عله يجيبه بما هو قابل للشك او بما هو مخالف لما نزل على موسى عليه السلام فينطلق من ذلك ليبرهن للصحابة ان ثقتهم في الرسول صلى الله عليه وسلم ليست في محلها . فسؤال اليهود عن الروح هو سؤال تعجيز وتغليب ^(١) .

فالروح كما ذكر ذلك المفسرون وشرّاح السنة لفظ مشترك ورد في القرآن الكريم فدل على ما به حياة الاجسام . واذا اضيف الى الله تعالى فهو للملك والتشريف كما استخدم للدلالة على بعض الأمور الخفية كالوحي وأمر النبوة . وأطلق أيضاً على بعض الملائكة . وخاصة ملاك الوحي جبريل عليه السلام .

واستخدم في الأحاديث النبوية للدلالة على روح الانسان او الحيوان التي إذا ما زرعت في الجسد نفخت فيه الحياة كقوله صلى الله عليه وسلم : « من فارق الروح والجسد » كما وردت في أحاديث للدلالة على قضايا غيبية كاضافتها الى الله تعالى « وتقذفهم روح الرحمن » وكورودها للدلالة على ملك الوحي او احد الملائكة . كما في الحديث سبوح قدوس رب الملائكة والروح .

ولذلك اختلف المفسرون في تحديد المقصود بالروح في قوله تعالى ويسألونك عن الروح . فقيل ان السؤال كان عن حقيقة الروح الذي هو مدار البدن الانساني ومبدأ حياته ^(٢) . وقيل هو جبريل عليه السلام . وقيل هو ملك من الملائكة سعى بعضهم الى تجسيمه لبيان القدرات العظيمة التي يمتاز بها . وقيل هو ضرب من الملائكة . واستدل القائلون بأن مدار السؤال هو غير الروح الحالة بالجسد بأن اليهود انما يسألونه عليه الصلاة والسلام عن أمر لا يعرفه إلا بالوحي ، وأما أرواح بني آدم فليست من الغيب ^(٣) .

لا شك ان اليهود كانوا يودون ان يتلقوا من الرسول صلى الله عليه وسلم جواباً محدداً يتمكنون بواسطته من ان يكذبوه وان يبينوا ان ذلك ليس هو المقصود بالروح وهم يريدون بعملهم ذلك ان ينفذ الصحابة من حوله عليه الصلاة والسلام . لقد استمر هذا الأمل يراودهم ويزين لهم سيئات أعمالهم . فهم يستغلون المناسبات لاثارة الصحابة رضي اليه عنهم ولجعلهم يختصمون

(١) ابن حجر : فتح الباري ٣٢٥/٨

(٢) الألوسي : روح المعاني ١٥١/١٥

(٣) الألوسي : روح المعاني ١٥١/١٥

علمهم يجدون من خلال خصوصياتهم منفذا يصلون بفضلهم الى زرع الشك في بعض المسلمين وجعلهم يتخلون عن التصديق المطلق بصاحب الرسالة .

فقد روى البخارى بسنده عن أسامة بن زيد ان النبي صلى الله عليه وسلم ركب حمرا عليه اكاف تحته قطيفة فدكية وأردف وراءه اسامة بن زيد وهو يعود سعد بن عباد بن الحارث ابن الخزرج ، وذلك قبل وقعة بدر ، حتى مر في مجلس فيه اخلاط من المسلمين والمشركون عبدة الأوثان واليهود ، وفيهم عبد الله بن ابي بن سلول . وفي المجلس عبد الله بن رواحة فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبد الله بن أبي أنفه بردائه ثم قال : « لا تغبروا علينا . » فسلم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم وقف فنزل فدعا الى الله وقرأ عليهم القرآن ، فقال عبد الله بن ابي بن سلول ايها المرء لا أحسن من هذا ان كان ما تقول حقا فلا تؤذنا في مجالسنا^(١) . يبين هذا الجزء من الحديث ان سكان المدينة بعد ان حل بها الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا يجتمعون ويتناولون بالبحث القضايا التي تهم مجتمعهم ، فالاختلاف العقدي لم يحل بينهم وبين الأمن الاجتماعى وحرية التفكير والقول ، فالرسول صلى الله عليه وسلم قد عقد بينهم معاهدة تنظم العلاقات بين الافراد والجماعات . وبذلك استطاع عبد الله بن ابي بن سلول وغيره ان يجالسوا المؤمنين الصادقين ، وان يثيروا معهم القضايا المتصلة اتصالا وثيقا بالايان والمعاملات والسلوك وغيرها من القضايا . لم يته الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابة عن مجالسة اهل الكتاب والمشركون ، ولم يطلب منهم ان يقاطعوهم اقتصاديا ، بل تركهم يجتمعون بهم في الأسواق والمنازل ودور العلم . ولكن اغلب اليهود لم يتخلصوا من عقدة التفوق التي اصيبوا بها ولم يقبلوا التعايش بين المجموعات الذي جاء به الاسلام فلم تزدهم الايام الا عداوة لصاحب الرسالة . فعبد الله بن ابي بن سلول اراد ان يظهر بالتخمير على انفه ان يوحى للجالسين وخاصة المسلمين منهم بأن الرسول صلى الله عليه وسلم يؤذى غيره بما تثيره دابته من غبار ، ولم يكتف بالاشارة والايحاء ، بل عبر عن ذلك بصريح القول « لا تغبروا علينا » أراد ان يظهر نفسه محاميا على كل افراد المجلس وعارفا بالآداب والسلوك ومدافعا عن الفضلية . وأفسد عليه الرسول صلى الله عليه وسلم تدبيره فنزل من ظهر دابته ودعا الى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة وتلا على الجمع الآيات الكريمة التي تشفي الصدور من شحها وتفتح امام العقل ابواب التدبر والمعرفة . ولما شعر ابن سلول ان الرياح سارت بما لا يشتهي وان

(١) خ ٧٩ - الاستئذان - ب ٢٠ التسليم في مجلس فيه اخلاط من المسلمين والمشركون .

الحكمة النبوية منعه من تحقيق مآربه وبلوغ اهدافه تظاهر باستحسان ما صدر عنه صلى الله عليه وسلم مع السعي للمرة الثانية الى التشكيك في سلامة الطريقة النبوية من التسلط وسوء اختيار الوقت المناسب والمكان اللائق .

لقد أراد ان يوحى للحاضرين بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد اعتدى على افراد المجلس فلم يحترم لا مسلمهم ولا يهوديهم ولا مشركهم . فالاساءة قد وجهت الى الجميع والألم قد حل بكل الحاضرين والسبب في ذلك هو الرسول صلى الله عليه وسلم .

كان ابن سلول يمني النفس وهو يوحى للحاضرين بهذه المعاني ان يرى الشك في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم يتتاب بعض المسلمين ويتملك منهم ، فيقرون بما أشار ويصدقون بما قاله فتتقص ثقتهم في النبي الكريم ، فيتركون اتباعه وينفضون من حوله ويعودون الى شركهم والى قبول التفوق اليهودى الذى كان سائدا بالمدينة قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم اليها .

ان غايته هذه لا تختلف كثيرا عن غاية الذين سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عن الروح . فهما تشتركان في البحث عن منفذ لمقاومة اسباب قوة المسلمين المتمثلة اساسا في الايمان بكل ما يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم أو يفعله لقد انطلق السائلون عن الروح من قضية تبدو متصلة بالعقيدة ومرتبطة بالمعرفة ليشيروا الشبهات وليبينوا أنهم أعلم من الرسول صلى الله عليه وسلم في حين اتخذ ابن ابي بن سلول من قضية سلوكية منطلقا له ليصل الى نفس الغرض .

لقد كان اليهود يمنون النفس بأن يظهروا للمسلمين انهم أعلم وأوسع أفقا من الرسول صلى الله عليه وسلم لذلك تراهم يفتنمون الفرص لاطهار تفوقهم المعرفي . فقد أقبل حبر من أحبار اليهود على مجلس من مجالس الرسول صلى الله عليه فقال : إنه اذا كان يوم القيامة جعل الله السماوات على اصبع والارض على اصبع والماء والثرى على اصبع ، والخلاتق على اصبع . ثم يهزهن ثم يقول انا الملك انا الملك^(١) .

أراد هذا الحبر ان يحدث المسلمين في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم وان يبين لهم جانبا من المعرفة التي يمتاز بها احبار اليهود والتي لم ترد عند المسلمين . سعى الى ان يحدثهم عن الغيبات وعن الامور التي ستجرى يوم القيامة متبعا في ذلك طريقة التجسيم القريبة من المستوى

(١) خ = ٩٧ التوحيد ب ٣٢ كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الانبياء وغيرهم

الذهني لافراد الامة العربية في ذلك الوقت . فعل هذا الخبر كل ذلك طمعا في ان يبدو تفوقه على ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم لبعض المسلمين فيبعث في نفوسهم شكاً قد يستغله هو وعشيرته بعد ذلك لتعود اليهم المكانة المرموقة التي كانوا عليها قبل قدوم الرسول صلى الله عليه واصحابه المدينة المنورة . لقد كان اليهود في تلكم الفترة يشعرون بالتفوق المعرفي على الأوس والخزرج وكان هؤلاء يسلمون لهم بذلك . قال بن اسحاق حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه قالوا : « عمادعانا الى الإسلام مع رحمة الله تعالى وهداه لنا لما كنا نسمع من رجال يهود وكنا اهل شرك واصحاب اوثان وكانوا اهل كتاب عندهم علم ليس لنا . »

أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم غاية هذا الخبر وما يرمي اليه من مباحث شكلية لا تساهم في تعميق الحوار وفي الوصول به الى مستوى يمكن المشاركين فيه من معرفة الله تعالى معرفة بعيدة عن الهوى والتجسيم والتعطيل فاكتفى صلى الله عليه وسلم بالضحك .

وأثار ما جاء في آخر رواية البخارى لهذا الحديث مباحث ساهم فيها بعض العلماء كالخطابي والقرطبي وغيرهما اذا توقفوا فيما نسب لابن مسعود من انه قال بعد نقل مقالة الخبر اليهودي « فلقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يضحك حتى بدت نواجذه تعجبا وتصديقا لقولهم . ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ^(١) .

فهذا الجزء من الحديث يفهم منه ان هذا الخبر قدم معلومات اعجبت الرسول صلى الله عليه وسلم ووجدت التصديق والاكبار . لكن ما تلاه صلى الله عليه وسلم لا يفيد ذلك فاستشهاده صلى الله عليه وسلم بهذه الآية المنزلة عليه بمكة دليل على ابطال ما توهمه الخبر ونظراؤه من الجسمية ^(٢) . وسعى بعض الشراح الى ان يؤولوا الحديث حتى يصبح الضحك غير دال على مدح الخبر أو اظهار معرفته وانما لبيان سلوك اليهود المتمثل في معرفتهم الحقيقية وتأويلهم الألفاظ تأويلا يساعدهم على نشر التجسيم . وفي هذا السياق اراد الخطابي ان يبين ان ذكر الاصابع الوارد في الحديث هو من تخليط اليهود المعروفين بالتشبيه ومن ثم رد الخطابي رواية البخارى التي جاء فيها - تصديقا لقوله - وكذلك فعل القرطبي فقد رد هذا اللفظ معللا ذلك بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يصدق المحال . قال في المفهم على صحيح مسلم « وضحك النبي صلى الله

(١) الزمر ٦٧

(٢) انظر : التحرير والتنوير ٦٣/٢٤

عليه وسلم انما هو للتعجب من جهل اليهودى ولهذا قرأ عند ذلك وما قدروا الله حق قدره أى ما عرفوه حق معرفته ولا عظموه حق تعظيمه فهذه الرواية هي الصحيحة المحققة واما من زاد تصديقا له فليست بشيء فانها من قول الراوى وهي باطلة لأن النبي لا يصدق المحال^(١) .

لقد أصبحت معرفة اليهود بعد حلول الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة مشكوكا فيها لذلك فقدوا الكثير من هيبتهم ومناعتهم وأدركوا انه لا نجاة لهم ولا عودة لسيطرتهم على النفوس والأموال الا اذا ما زرعوا الشك في نفوس بعض المسلمين حتى يتخلوا عن الايمان بما يأتي به محمد صلى الله عليه وسلم . ولتحقيق هذا الهدف كان الجدل يحدث بينهم احيانا لمعرفة ما ينتج عن الاسئلة الماكرة التي كانوا يعدونها لا لقائنها على الرسول صلى الله عليه وسلم في الوقت المناسب . لقد ذكر حديث عبد الله ابن مسعود ان بعض اليهود كان يخاف من نتيجة سؤاله صلى الله عليه وسلم عن الروح لذلك حذر هؤلاء المتخوفون من ان يأتي الجواب النبوى بمعلومات لا تزيد مكانة اليهود في المجتمع المدني الا تدهورا . خاف هؤلاء من ان يكون السؤال الموجه الى الرسول صلى الله عليه وسلم لتعجيزه وتشكيك اصحابه فيه مناسبة تظهر وقوف الوحي الى جانبه وتبرز للمسلمين وغيرهم انه صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى ولا يصدر عنه الا ما ينفع الناس فاما الزيد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال^(٢)

لقد ذكر الحديث بطرقه المتعددة ان هؤلاء المتخوفين عبروا عن شعورهم . والمتبع لما صدر عنهم قبل الجواب النبوى وبعده يدرك ان تخوفهم لم يكن تخوف الباحث عن الحقيقة أو المتمسك بها . وانما هو تخوف الاناني الذي يبقى دائئا حائرا بين الفعل وعدمه . لم يمنعوا اصحابهم من القاء السؤال ولم ينسحبوا وانما ترصدوا الاحداث وترقبوا الجواب . ولما جاء داحرا للظلم لم يؤمنوا ولم يقولوها صريحة انه مطابق لما عندهم في التوراة ، وانما ساهموا في الجزء الثاني من الحوار الذي دار بين الرسول وبين مجموعتهم .

فقد ذكرت بعض الروايات ان اليهود قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم لما اجابهم عن سؤالهم عن الروح بقوله تعالى : ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما اوتيتم من العلم الا قليلا ، نحن مختصون بهذا الخطاب . قال صلى الله عليه وسلم بل نحن وانتم فقالوا : ما اعجب شأنك ساعة تقول : ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وساعة تقول هذا ، فانزلت

(١) نقلا عن فتح البارى ١٣/ ٣٤٠ . انظر ايضا : التحرير والتنوير ٦٣/ ٢٤

(٢) ١٣ - الرعد ١٧

« ولو أنما في الأرض من شجرة اقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ^(١) ». لقد أدرك اليهود الحاضرون المعارضون منهم والمؤيدون لتوجيه السؤال عن الروح ان الجواب النبوي لم يحقق لهم ما كانوا يريدون بل ابرز ان هناك معلومات كثيرة لم يصل بعد الفكر الانساني الى ادراكها وانه توجد معلومات اخرى لا يمكن لهذا الفكر ان يصل اليها ذلك ان طبيعتها تختلف اختلافا جذريا عن تكوينه ، وانها تتطلب قوى لم تتوفر فيه بعد . فالله لم يخلق للانسان اجهزة تمكنه من بلوغها في الدنيا على اقل تقدير ولذلك خاطب الحاضرين بقوله : وما اوتيتم من العلم الا قليلا . ان هذا الخطاب لا يفيد تعجيزا ولا يدعو الى السلبية وانما يبين للانسان انه من الحكمة ان يعلم من الخير ما تسعه الطاقة البشرية ^(٢) .

فالانسان مطالب بأن يستخدم الاجهزة التي سخرها الله له ليعلم ما فيه صلاحه وصلاح الانسانية وان يسلم بأن ما توصل اليه ناقص بالنسبة لما سيتوصل اليه الانسان في مستقبل الأيام . وان علم الانسانية مهما بلغ من كمال فانه يبقى ناقصا بالنسبة لعلم الله تعالى المخالف لعلم الانسان والخالق اياه . ولكن اليهود سعوا الى التشكيك عن طريق الايحاء والمقارنات الناقصة فقالوا للرسول صلى الله عليه وسلم كيف تقول ان علمنا ناقص وان ما اوتينا قليل في حين انك تتلو ان التوراة قد نزلت وفيها حكمة وان الذي اوتي الحكمة قد اوتي خيرا كثيرا . ألا يعد هذا من المتناقضات التي تحكم بالشيء وضده .

وللمرة الثانية يظهر الوحي فساد ادلتهم فقد بين لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ان التوراة هي تنزيل من الله تعالى . وهي في علمه قليل ، آتاهم بها ما ان تعلموه انتفعوا به ومكنوا عقولهم من المعرفة وحواسهم من استئثار خيرات الله الظاهرة والباطنة . وتلا عليهم قوله تعالى : « ولو ان ما في الأرض من شجرة اقلام (الاية) . اراد اليهود في مناسبات متعددة ان يشككوا فيما أتى به الرسول صلى الله عليه وسلم من آيات وخاصة تلك التي تمسهم من قريب او من بعيد ، فقد مر بنا انهم سعوا الى اظهار التناقض فيما تلاه الرسول صلى الله عليه وسلم لما سأله عن الروح ليعلم الحاضرين وغيرهم ان علم الانسان لا يقارن بعلم الله ، وان الانسان مهما اوتي من علم فانه يبقى في حاجة الى مواصلة البحث والمثابرة . ذلك أن العلم الانساني يسعى الى اكتشاف ما أودعه الله في الكون بجميع عناصره من أسرار تتمثل وظيفة العلم الانساني في الوقوف عليها وادراكها واستخدامها لما يعود عليه بالخير والبركة . ومع ذلك فان ملك الله لا

(١) لقمان ٢٧

(٢) ابن السعود - تفسير ١٩٢/٥

يعرف النهاية ونعمه لن يستطيع الانسان حصرها أو عدها ولكنه مطالب بالبحث عنها وباستثمارها . وهكذا يبقى افق البحث مفتوحا امام الانسان فيسلم بأمرين : يتمثل أولهما في أن علم الله الكلي الأزلي لا يمكن أن يفنى أو أن ينتهي ، ومن هنا فإن علم الانسان مهما كان فإنه لن يستطيع ان يصل الى مستواه . اما ثاني الامرين فيدعو الانسان الى التسليم بأن باب تقدم العلم البشرى وتطوره رهين بما يبذله الفكر وما تحققه الآلة وانه كلما نمت المعرفة ازداد العلم البشرى اتساعا وعمقا وقد يصل الى مراحل تجعله في عصر ما اكثر فهما واستخداما لما اودعه الله في الكائنات ولما حبا به عباده من نعم .

ولكن النظرة الضيقة جعلت اليهود يدعون انهم محور الوجود وان علمهم هو الحكمة وهو مصدر الخير ولذلك لم يتصوروا كيف ينزل الوحي ليقول لهم « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » وعبروا عن عدم التصور هذا للرسول صلى الله عليه وسلم وسعوا من وراء ذلك الى تشكيك الصحابة رضي الله عنهم في الوحي . والى جانب سؤالهم عن الروح ومناقشتهم للوحي نراهم احيانا يسألون عن ماهية الروح ويتساءلون عن كيفية عذابها ليزيدوا الامور تعقيدا والبحث تشعبا والعقول حيرة . فهم يدركون ان الروح من الأمور الغيبية التي لا يستطيع العقل المجرد ان يبحث فيها دون الرجوع الى النص ، ولذلك اكثر اليهود من السؤال عن الروح بطريقة تعمدوا فيها اثاره الشبهات . فقد أورد الطبري في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما ان اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم « اخبرنا ما الروح وكيف تعذب الروح التي في الجسد وانما الروح من الله عز وجل . وضع اليهود هذه الاسئلة على الرسول صلى الله عليه وسلم مترقبين ان يصدر عنه عليه الصلاة والسلام جوابا ينطلقون منه لوضع مجموعة اخرى من الاسئلة حول كيفية حلول الروح في الجسد وخروجها منه وهل يمكن للجسد ان يعذب دون ان تكون الروح حالة به واذا تعذر ذلك فهل يمكن للروح ان تنجو من العذاب المسلط وهي حالة به . واذا ما صدر عنه عليه الصلاة والسلام ما يفيد ان الروح تعذب فانهم سيثيرون مجموعة من الاسئلة تتعلق هذه المرة بكيفية تعذيب الروح وهي كما نعلم من الله عز وجل . وهكذا يستطيعون ان يشغلوا المسلمين بقضايا شبيهة بتلك التي فرضوها على الفكر المسيحي عندما نشروا فيه قضية ماهية المسيح واتحاد الناسوت باللاهوت ، وما شابهها من قضايا صورية ادت بالمسيحية الى ان تصبح ظلا لبعض الفلسفات اليونانية او الطقوس الهندية .

ولما اجابهم الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى : « قل الروح من أمرى وما أوتيتم من العلم الا قليلا . قالوا له « من جاءك بهذا فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم جاءني به جبريل

من عند الله فقالوا : والله ما قاله الا عدولنا ^(١) .

لما أفسد الجواب النبوى على اليهود المخطط الذى اعدوه واغلق امامهم باب السؤال التشكيكي الذى يجعل العقل تائها والنفس حائرة ويساهم في هدر الطاقات البشرية ، ولما اصابهم من الجواب النبوى ما اصابهم جرحوا جبريل عليه السلام ، فادعوا انه عدوهم وان بينهم وبينه خصومة . فلا يمكن لآخباره ان تكون حجة لديهم . لقد ارادوا ان يطفئوا نور الله ويشككوا في ملاك الوحي ، فأنزل الله تعالى على نبيه قوله : قل من كان عدوا لجبريل فانه نَزَّلَهُ على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ^(٢) .

ظل اليهود ولا يزالون ينشرون في الناس انهم ابناء الله وأحباءه وشعبه المختار حباهم بعلم لم يؤته غيرهم وميزهم في هذه الدنيا بأن خلق لهم ما على الارض من نعم ومن بشر . وأعد لهم في الآخرة الثواب الجزيل والجنة الخالدة ما لم يخلقه لغيرهم .

كانت لهم مواقف مع الرسول صلى الله عليه وسلم في سبيل اظهار تفوقهم المعرفي ، ولكنهم عجزوا على بلوغ اهدافهم وتحقيق ما سطره ، فتوجهوا الى موضوع آخر عسى ان يجيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم جوابا يستطيعون تأويله وتحميله مالا يتحمل فينشرون في الناس أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفادهم بأن الله تعالى سوف لن يعذبهم إلا لأيام معدودات لا تزيد عن الأربعين ليلة ، وان هذا دليل على انهم على صواب ومن سواهم على باطل . فقد أخرج الطبرى ^(٣) من طريق عكرمة قال : خاصمت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه فقالوا : لن ندخل النار إلا أربعين ليلة وسيخلفنا إليها قوم آخرون : يعنون محمدا واصحابه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده على رؤوسهم : بل أنتم خالدون مخلدون لا يخلفكم فيها أحد فأنزل الله تعالى : وقالوا لن تمسنا النار الا اياما معدودة قل اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهدك . أم تقولون على الله مالا تعلمون ^(٤) .

بهذا المنهج القويم الذى يعتمد في اساسه على ربط الجزاء الأخرى بالتكليف وبالعمل وبالعادل ، بين الرسول صلى الله عليه وسلم لليهود ولغيرهم أن البشر سواسية عند الله تعالى

(١) الطبرى : جامع البيان ١٥ / ١٠٤

(٢) البقرة ٩٧

(٣) الطبرى : جامع البيان ١ / ٣٠٢ - ٣٠٣

(٤) البقرة ٨٠

من حيث الخلق والتكليف وان الامتياز بينهم في الجزاء والأجر يقوم أساسا على الايمان ومدى صفاته ، والعمل ودرجة التقوى فيه ، والسلوك وما يتصف به من استقامة وما يحققه للفرد وللمجموعة من طمأنينة وتعاون وتكاتف وتقدم حضارى . فلا أحد يستطيع الجزم في هذه الدنيا بأنه من أصحاب النعيم أو ان مدة بقائه بجهنم لا تتجاوز الاربعين ليلة أو ما شابهها ، ومن يفعل ذلك فانه جاهل يفرض على الله تعالى ما يساير هواه وذلك من علامات الكفر والنفاق ومن كان ذلك شأنه فهو مخلد في النار .

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم عالما بمكر اليهود وبادعائهم الباطل وبسعيهم المستمر الى تشكيك المسلمين في الوحي بالطرق المتنوعة التي قد تصل الى دس السم للرسول صلى الله عليه وسلم حتى يتخلصوا منه . وفي ظنهم انهم يقضون بذلك على الدين الذى شاهدوا أثره في توحيد أهل المدينة ومن هاجر اليهم من مكة . وأدركوا انه لا محالة سيوحد كامل الجزيرة العربية وكل الأقطار والامصار التي سيصل اليها وذلك أمر لا تقبله كبرياؤهم ويناقض مصالحهم وخاصة المادية منها .

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم قوة عداوة اليهود للدين ولخاتم النبيين فقد اعلمه الوحي بذلك . قال تعالى : لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ، والذين أشركوا . ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون^(١) .

وفعلا جرب اليهود القضاء على الرسول صلى الله عليه وسلم بواسطة السم فدفعوا احدى نساءهم الى ان تقدم له عليه الصلاة والسلام شاة مسمومة . وحمل الله تعالى رسوله الكريم الذى قال فيما رواه عنه أبو هريرة « اجمعوا إلي من كان هاهنا من يهود . فجمعوا له فقال : « إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه ؟ فقالوا : نعم . قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : من أبوكم ؟ قالوا : فلان . فقال : كذبتكم ، بل أبوكم فلان . قالوا صدقت . قال : فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه ؟ فقالوا : نعم يا ابا القاسم وان كذبنا عرفت كذبنا كما عرفت في أبينا . قال لهم : من أهل النار . قالوا نكون فيها يسيرا ثم تخلفونا فيها . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اخسثوا فيها والله لا نخلفكم فيها أبدا . ثم قال : هل أنتم صادقي عن شيء ان سألتكم عنه ؟ فقالوا نعم يا ابا القاسم قال : هل جعلتم في هذه الشاة

سما ؟ قالوا : نعم . قال : ما حملكم على ذلك . قالوا اردنا ان كنت كاذبا نستريح وان كنت نبيا لم يضرك^(١) .

يبين هذا الحديث ان اليهود يتعمدون الكذب ويستخدمونه للترفع وهم يعلمون ان الرسول صلى الله عليه وسلم سيفضحهم ويرد قالاتهم فقد جربوا ذلك معه فكذبوا وهو يسمون اباهم الذي ينتسبون اليه ولكنهم لم يتخلوا عن الكذب عندما سُئِلوا عن مصيرهم يوم القيامة . فعقدة التفوق عندهم اقوى من النفس اللوامة ، ومن التفكير المنطقي . لذلك ادعوا باطلا انهم سوف لن يعذبوا الا قليلا وان غيرهم وخاصة خصومهم سوف يحلون محلهم في العذاب ، فتمتلىء بهم جهنم ويبقون خالدين فيها ، ولما سئلوا السؤال الثالث لم يجدوا بدا من قول الحق والاعتراف بأنهم قدموا هذه الشاة المسمومة للرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم قدموا تبريرا ارادوا به التمويه على العقول والتهرب من المسئولية .

لقد قدموا انفسهم ابطالا يبحثون عن الحقيقة يستخدمون في سبيل ذلك الحنكة والتجربة . هم يعلمون حسب دعواهم ان الانبياء لا يضرهم السم ، ولا تصل اليهم السهام والأسنة . فالواجب على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى الصحابة رضي الله عنهم ، بالمفهوم اليهودي ، يقتضي منه ومنهم ان يشكروا اليهود وان يمدحوهم على فعلتهم التي اظهرت عن طريق التجربة ان محمدا صلى الله عليه وسلم نبي الله والتي بينت للمسلمين ولغيرهم ان الله تعالى يعصم الانبياء من الناس فيحميهم من الشرور ويدفع عنهم الآفات .

هكذا قدم يهود خبير انفسهم عالمين متدبرين متفوقين ، ولكنهم لم يؤمنوا بالذي تبين لهم صدقه ، ولم يدخلوا في الدين الحنيف . فاثبتوا بذلك انهم كانوا يدبرون ويخططون ويتآمرون ويتفقون فيما بينهم على الجواب الذي يقدمونه اذا ما فشلت خططهم ووقعوا متلبسين بجريمتهم . فقد أوردت بعض روايات حديث الشاة المسمومة ان امرأة من يهود خبير اهدت للرسول صلى الله عليه وسلم شاة مصلية فتناول منها وتناول منها بشر بن البراء ثم رفع النبي يده ثم قال : ان هذه تخبرني انها مسمومة . فمات بشر بن البراء فأرسل اليها النبي صلى الله عليه وسلم : ما حملك على ما صنعت . فقالت : ان كنت نبيا لم يضرك وان كنت ملكا ارحت الناس منك^(٢) .

(١) خ ٥٨ الجزية والموادعة : ٧

(٢) دى = المقدمة ١١

فجواب هذه اليهودية لا يختلف كثيرا عن جواب اليهود الذى ذكرته رواية البخارى . والجمع بين الروايتين يثبت ان اليهود خططوا ودبروا وكلفوا امرأة منهم بالتنفيذ ، وقدموا لها الجواب المناسب الذى ظنوا انه ينجيها من العقاب بل لعل البعض من المسلمين يقف الى صفهم ويعترف لهم بالمعرفة والفضل وبعد النظر ، فينسى فعلتهم النكراء واقدامهم على الغدر والخداع ، ويحمد لهم ما وفروه لغير اليهود من دليل يعين على اظهار الحق وانتشار الاسلام . فهم بهذا المفهوم مساهمون مساهمة فعالة في انتصار الحق على الباطل ، وفي تبليغ الرسالة الالهية . ومع ذلك فهم غير مطالبين باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، ذلك ان دينهم هو الأصل وان جنسهم لا يكون تابعا . هم يرشدون ويقودون ويهدون ويمكنون الامم التى لا تستطيع الارتقاء الى مرتبتهم من اتباع الدين الذى يرضونه ويعلمون صدق صاحبه . فهذه الامم في حاجة الى اليهود الى معرفتهم والى توجيهاتهم حتى لا يقع افرادها في الضلال وحتى لا يتسلط عليهم المتقولون والمتنبئون . بهذا المنهج التسلطى والجدل التحكمي أراد اليهود ان يبرروا كذبهم وغدرهم واعتداءهم على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى صحابته رضي الله عنهم . ولكن الرسول الكريم بين للصحابة خطر اليهود على الدين الاسلامي ، وعلى الأفراد والجماعات المسلمة ، وعلى الفكر الانساني بصفة عامة . فهم يستخدمون شتى الطرق والوسائل لابرار تفوقهم وامتيازهم على العالمين . لقد جادلوا الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين في الحياة الدنيا واستخدموا في جدلهم كلمة الحق ولكنهم ارادوا بها الباطل ، وهم سيفعلون نفس الشيء في الدار الآخرة ، فقد خرج البخارى بسنده عن ابي سعيد الخدري حديثا طويلا رفعه الى الرسول صلى الله عليه وسلم يتعلق برؤية البشر الله تعالى يوم القيامة وجاء فيه حوار بين اليهود والملائكة . قال صلى الله عليه وسلم . . . فيدعى اليهود . فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا كنا نعبد عزير ابن الله فيقال لهم : كذبتهم . ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد . فماذا تبغون . فقالوا : عطشنا ، ربنا فاسقنا . فيشار ألا ترُدُّون فيحشرون الى النار^(١) .

إن هذا الموقف من اليهود يصور المركبات التي تمكنت من انفسهم ، وجعلتهم لا يتخلون عن حب الامتياز حتى وهم يعرضون على الحساب . فقد قدموا انفسهم الى الملائكة على انهم كانوا يختلفون عن البشر المؤمنين الموحددين . فعبادتهم لابن الله كانوا حسب زعمهم اكثر قربا منه واوسع معرفة اياه من غيرهم .

(١) خ ٦٥ تفسير سورة النساء : ٨

ولما ردت زعمهم الملائكة وذكرتهم بأنه تعالى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، لم يتوبوا ولم يستغفروا ولم يندموا على ما افتروه ، بل طالبوا بما يذهب عنهم العطش ويحميهم من الظما . وغاب عنهم أنهم ظلموا انفسهم وان جزاءهم لن يكون الا النار . لم يتعظ اليهود بالأحداث التي وقعت لهم زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يتخلوا عن سعيهم الظهور بمظهر العارفين الممتازين الذين لا يدانيهم في العلم احد ولا يستغني عن معارفهم بشر ، ولا تفتح ابواب النبوة لمن سواهم الا اذا سمحوا هم بذلك . لقد ظلت هذه المركبات تسيطر على نفوسهم ، وتلي عليهم تصرفاتهم مع البشر عامة والمسلمين منهم خاصة . فكم من يهودى سعى الى تلوين الاسلام بما يريده ويبتغيه ، وكم من يهودى ملى النفس بأن يرى المسلمين يأخذون عنه قصصه وتفسيره لبعض الوقائع وتأويله لبعض الآيات . وكم من يهودى ملى النفس بأن يعجز علماء المسلمين باسئلته وملاحظاته . فقد اخرج البخارى بسنده عن سعيد بن جبير قال : سألت يهودى من أهل الحيرة : اى الاجلين قضى موسى ؟ قلت لا ادرى حتى أقدم على خبر العرب فأسأله ، فقدمت فسألت ابن عباس فقال قضى اكثرهما واطيبهما ان رسول الله اذا قال فعل^(١) .

فهذا الحديث يصور ثلاثة مواقف وقفها يهودي وتابعي وصحابي جليل . اما اليهودى فقد بلغه ان القرآن الكريم قد قص قصة موسى عليه السلام منذ صدور الأمر الفرعونى القاضي بتقتيل ابناء بنى اسرائيل واستحياء نسائهم الى ان بلغ عليه السلام رسالة ربه وترك امته على الدين الحق الذى ارتضاه لهم ربهم . علم اليهودى هذا الأمر كما علم أن القرآن الكريم قد نزه الانبياء والرسل عن الاستمرار على الخطأ ، وأدرك الى جانب ذلك ان القرآن الكريم ، قد ذكر في قصة موسى عليه ايسلام اتصاله بشعيب وقول هذا الاخير له لما اراد ان يزوجه ابنته . قال انى أريد أن أنكحك احدى ابنتي هاتين على ان تأجرني ثماني حجج . فان اتممت عشرا فمن عندك (الآية)^(٢) .

ولكنه اراد بوضعه السؤال على احد التابعين بلوغ امرين : يتمثل احدهما في بيان جهل المسلمين بقضايا كثيرة ومتعددة فمعرفتهم قليلة بالنسبة لمعرفة اليهود . ومرد ذلك هو النقص الموجود بالقرآن وهو نقص لا يمكن اكماله والتغلب عليه الا بفضل التوراة .

وهكذا سعى اليهود قديما وحديثا الى التأكيد على ان القرآن في حاجة ماسة الى التوراة . فهو

(١) خ الشهادات ٢٨

(٢) ٢٨ - القصص ٢٧

قراءة جديدة قام بها محمد صلى الله عليه وسلم حسب دعواهم للتوراة . وهذه القراءة كانت سلبية في بعض الاحيان لذلك هي في حاجة الى اليهود والى أحبارهم .

أما الأمر الثاني الذى منى هذا اليهودى نفسه ببلوغه فيتمثل في تسجيل خطأ قد يصدر عن التابعي سعيد بن جبير فيحمله اذاك على التقول والتمحل ، فيقال حينئذ ان اخبار الاسلام هي ترسانة من الأكاذيب والأباطيل التي نشأت منذ عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، واستمرت في التضخم والتكاثر . فالأيام لم تزدها الا انتشارا . والأحداث لم تستطع ايقافها او الحد منها . بل قدمت لها الظروف المناسبة لتصبح حقائق تبنى عليها الأحكام والتوجيهات واسس السلوك .

أراد هذا اليهودي بسؤاله ان يحقق أحد الأمرين او كليهما ولكن موقف سعيد ابن جبير افسد عليه مخططة وحرمه من تحقيق مأربه . فقد كان موقف المسلم الذى تربى في مدرسة الصحابة الميامين الذين علموا المسلمين ضرورة الثبوت في السنة النبوية وخطر تفسير القرآن الكريم بالأدلة العقلية المجردة التي لا تقوم على نص نقلي او برهان مستمد من الثوابت التي اتى بها القرآن الكريم والسنة المطهرة .

أظهر موقف سعيد بن جبير ان المسلمين في عصر الصحابة رضي الله عنهم وفي اوساط عامة التابعين لم يكونوا يسمحون لانفسهم بالتقول على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد بلغهم عنه عليه الصلاة والسلام قوله من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار^(١) . كما بلغهم ان القرآن الكريم مهيم على ما قبله وان به ختم الدين وأكملت نعم الله على عباده الصالحين وان الله تعالى حفظه من التحريف والزيف وهي أمور لم تتوفر للكتب المتقدمة .

ولذلك لم يتقول هذا التابعى ولم يقل في القرآن برأيه المجرد كما انه لم يسلم لهذا اليهودى بالتفوق فلم يطلب منه افادته بما هن موجود في التوراة او في غيرها من كتب اليهود لانه يدرك ان اليهود قد يكذبون وقد يصدقون ، قد يكتمون وقد يبوحون . ألم تصدر عنهم المواقف المتناقضة . ألم يسعوا الى التضليل . فالى جانب ما حكاه القرآن الكريم عن طريقة تعاملهم مع النصوص المنزلة تواترت الاخبار عن كتمهم اخبار التوراة تارة وتبديلها تارة اخرى . فقد روى ان مروان بن الحكم بن العاص قال لبوابه اذهب يارافع الى ابن عباس فقل لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي واحب ان يحمد بما لم يفعل^(٢) معذبا لعذبتنا اجمعين ؟ فقال ابن عباس : ما لكم ولهذه انما دعا

(١) خ ٢ علم ٣٨ ح ٢

(٢) اشارة الى قوله تعالى : لا تحسن الذين يفرحون بما اوتوا ويحبون ان يحمدا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب اليم . (٣ آل عمران ١٨٨)

النبي صلى الله عليه وسلم يهودا فسألهم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فأروه ان قد استحمدوا اليه بما أخبروه عنه فيما سألهم وفرحوا بما أوتوا من كتبهم . ثم قرأ ابن عباس « واذ اخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب حتى قوله : يفرحون بما أوتوا ويحبون ان يحمدا بما لم يفعلوا^(١) » .

كان ابن جبير على بينة من المركبات التي تحرك اليهود فلم يجب سائله ولم يطلب منه التوضيح والبيان واكتفى « بلا ادري » التي عدها بعض العلماء نصف العلم اذا كانت دافعا للطلب واصلا للبحث ووسيلة للمعرفة المبينة على ما يشبه اليقين . اجاب ابن جبير سائله بلا ادري وصمم على الذهاب الى حبر الامة الذي دعا له الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » . وهكذا قدم هذا التابعي الجليل على عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وسأله ووجد عنده الجواب المعلن والتأويل المبني على كليات الشريعة واصولها وخاصة ما اتصف به الانبياء والرسل عليهم السلام من انهم يحولون اقوالهم افعالا .

وبهذا تتضح الدوافع التي حركت اليهود في حوارهم الجدلي مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فاذا هي لا تخرج عما ركب فيهم من عقد نفسية جعلتهم يؤمنون بانهم شعب الله المختار وبأن معرفتهم لا تدانيها معرفة وان الناس جميعا قد خلقوا ليكونوا في خدمتهم وتحت سلطتهم ، فاذا ما سمحوا لاحد بان يكون ملكا كان ، واذا ما أباحوا له بأن يصير نبيا صار . واذا ما سلموا بصدق شخص او خبر فواجب على الناس ان يصدقوا به وان يعملوا بمقتضاه اذا ما صدر عنهم ما يفيد ذلك . واما الوسائل التي استخدموها لتحقيق دوافعهم فهي كثيرة ومتنوعة بينت لنا الأحاديث التي نقلت حوارهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم جانبا مهما منها . وهو المتمثل في السعي الى السيطرة على ما يتعارض مع مصلحتهم . فالحقيقة في نظرهم متحركة تابعة للاهواء وفي خدمة الأغراض والمنافع . وحتى يظهر الرسول صلى الله عليه وسلم تمحلهم وانايتهم ، وحتى يفسد عليهم مخططاتهم كان عليه الصلاة والسلام يتجنب اطالة الحوار الجدلي معهم فيجيبهم بآية بينة او بدليل قاطع . فيسد امامهم باب القيل والقال ، والسؤال الذي فيه مغالطة ، وهو الى جانب ذلك يعمق في المؤمنين ايمانهم بوحداية الله تعالى وقدرته وحكمته ولطفه بعباده الذين انعم عليهم نعمًا ظاهرة وباطنة من اهمها واجلها نعمتا العقل والنوبة . وهكذا حمى الرسول صلى الله عليه وسلم العقيدة الاسلامية من السلبية ومن التحول الى مجموعة

(١) خ ٦٥ تفسير آل عمران ١٥ ح ٢

١ من النظريات المجردة التي لا يمكن تنزيلها الى الواقع العملي او استخدامها لتعديل السلوك
البشرى . كما لم يترك عليه الصلاة والسلام اليهود ينعمون بفرحة الانتصار . فقد
كان يجيهم بطريقة فيها من الايجاز والاعجاز الشيء الكثير فيظهر تهافت ادلتهم ومخالفتها إلى
جانب قوة ادلته ونفاذها الى العقل لما اتسمت به من رفق في القول وبلاغة في التعبير وارتباط بالحياة
وبما جبلت عليه النفس البشرية .